

صرخة من جرح المتروبوليت سابا (اسبر)

الكنيسة، أساساً، لفظة مشتقة من اليونانية، وتفيد كما الأصل العبري، شعب الله. في شعب الله هذا مواهب متنوعة، وخدمات مختلفة، يجب أن تتعاون وتتكامل، بغية خدمة الجسد الواحد (١كو ١٢). تجد في شعب الله أساقفة وكهنة ورهباناً وراهبات، ومتزوجين ومتبتلين؛ صغاراً وكباراً، نساء ورجالاً، جميعهم يحمل سمة الكهنوت الملوكي، التي ختمته في معموديته، وتطالبه بأن يكون مكرساً لله. هؤلاء جميعاً مشمولون بكلمة "الكنيسة" في هذا المقال.

لا شك في أنّ التحدي، الذي يواجهه المسيحيون، حالياً، بات تحدياً وجودياً في بعض البلدان، كالشرق الأوسط مثلاً، أو تحدياً إيمانياً وقيماً في بلدان أو ثقافات أخرى. إلا أنّ تقاعسهم عن مساندة بعضهم، كما يجب، غير مبرر، أيّاً تكن الحجج المقدمة.

لا يختلف اثنان في ملاحظة التغيير الهائل الذي أحدثته العولمة الحالية في أوضاع الحياة، وتركيبية الإنسان الداخلية والخارجية، وانعكاساته على الإنسان المعاصر.

فعلى سبيل المثال، لا الحصر، نجد أنّ قدرة الناس، على احتمال الشدائد، باتت أضعف من قبل بكثير، بسبب نمط الحياة المدنية المعاصرة، وما فيها من اعتياد على السهولة، التي خلقتها التكنولوجيا الحديثة. كما أنّ اختيار المسيحيين عموماً، تفضيل نوعية العيش على كميّته، أنتج، وما يزال، أسراً صغيرة، وتالياً، تناقصاً عدديّاً، إلى جانب درجة عالية من التعلّم، والانخراط في أسلوب العيش المدني.

هذا كلّ جعلهم يسعون إلى رفاهيّة، تقترن، عادةً، برخاوة في العيش، تتسم بها المجتمعات المتحضّرة.

وإذا ما أضفنا ظاهرة تراجع الحياة الروحيّة، وعيش التقشف، والاكتفاء بمظاهر التديّن الاجتماعيّة، فإنّنا نستطيع، إلى حدّ ما، فهم تعب الناس السريع ممّا يجري من مآس هنا وهناك، وضعف قدرتهم على تحمّل الشدائد، وتراجع صلابتهم الروحيّة. ولا ننسى أن اعتيادهم على مشاهد صور المآسي قلّل من درجة تفاعلهم الفعلي معها، نتيجة الاعتياد.

هذه بعض من الأسباب التي تؤكد خطورة التحديات الجديدة ومأساويّتها. ولا أذكرها إلاّ لأبيّن أهميّة المواجهة المطلوبة من كلّ مؤمن، أيّاً يكن وضعه، وظرفه، وموقعه ضمن شعب الله.

استنتاجاً مما سبق، نسأل: ما المطلوب من شعب الله، وما هي حاجته الأولى، في هذا الوقت بالذات؟ كيف نزيل الغبار، الذي راكمته خطايانا ولا مبالتنا على وجه كنيستنا، ليظهر وجه سيدها، على حقيقته، مخلصاً وحاضناً وحانياً؟ ما الذي علينا، نحن المؤمنين، القيام به، في هذه الأيام المفصلية؟ ما هو دور شعب الله، كنيسة يسوع المسيح، إكليروساً وعواماً، نساء ورجالاً، جماعة وأفراداً؟

أدعو إلى التأمل في أن نجعل الكنيسة جماعة واحدة تعمل لمجد الله وخلص الإنسان، وأن نعمل على التخفيف من هيكلّياتها الإدارية، قدر الإمكان، من أجل إفراح المجال للروح القدس، كي يعمل فيها بحريّة، ويلهمنا خلق أساليب جديدة تتطلبها الخدمة اليوم، وأن نعتمد البساطة الإنجيلية نمطاً أوحّد لحياتنا، مستعدين عيش الزهد، ونابذين المجتمع الاستهلاكي، ومكتفين بفرح المسيح الحاضر في ما بيننا، وأن نقبل مواهب جميع المؤمنين، بفرح، متطلّعين إلى العمل سوياً بروح التكامل، لا التناحر، فنشيد بناء الله كما يليق بتعليم إنجيله،

وأن نعي أنّنا، نحن الذين اعتمدنا بالمسيح ولبسناه، ننتمي بالقوّة ذاتها، وبالروح ذاته، إلى الكنيسة ذاتها. وأنّ الاختلاف في ما بيننا، إنّما هو بالمواهب الممنوحة لكلّ منا، وبالجهد الصادق الذي يقدّمه كلّ منا، وبالتواضع، الذي يُفسح المجال أمام الشهادة المسيحيّة، كي تعبّر عن ذاتها دون هوى،

وأن نغذّي روح العمل المشترك، وروح الصلاة والتأمّل والصلوات الجماعيّة، من أجل صفاء في الرؤية، يدفع نحو استراتيجيّة تميّز الأولويّات وتضعها موضع التنفيذ، وتأمّر بتوجيه كلّ الطاقات المتوفرة إليها،

وأن نتبّي الناس المحزونين، الذين دعاهم المسيح "إخوتي الصغار"، تبنياً ملموساً لا كلامياً. ألا ترون كم ملّ الناس الكلام والشعر، وكم هم بحاجة ماسّة إلى فعل حيّ ومحسوس؟!

وأن نخلق وننميّ كلّ ما من شأنه أن يقوّي ثقافة المشاركة والتشارك مع الناس الذين يموتون من الوحدة والخوف والخيبات،

وأن نحطّم الكثير من القيود، التي كبّلنا أنفسنا وكنيستنا بها، ومنعنا، بسببها، الله، من العمل في أوساطنا،

وأن نكتفّ العمل على تجذير إيماننا التجسّدي في العالم، الذي أتى المسيح من أجل خلاصه، وأن لا ننعزل وننكفئ في أوهام طقوسنا الجميلة، معتقدين أنّنا نعيش الملكوت فيها، فيما المسيح يموت برداً خارجها، متناسين، عن غير وعي، أنّها تدعونا إلى جعل العالم كلّهُ إفخارستياً مستمرة!!

كم نحتاج إلى أن نضع نصب أعيننا كلمة القديس يوحنا الذهبي الفم، بأنّ القدّاس الإلهي يبدأ عندما نخرج من الكنيسة. أنت تغادر القدّاس الإلهي، محمّلاً بالزاد الروحي، لتنتقل إلى الخدمة التي كلّفك الإنجيل بها. تنطلق من "سرّ القدّاس إلى سرّ الأخ".

كم نحتاج، في هذا الزمن العصيب، إلى إعطاء الأولويّة لهمّ بناء هيكل الله الحيّة، ومنحها الأفضليّة على أيّ هيكل حجري، مهما كان عظيماً وقيماً. الوقت وقت صورة الله في وجه "إخوته الصغار"، لا في الرسوم الجدارية!! الوقت وقت بناء مقتضيات المحبّة الفاعلة، المحتضنة للآخر، بشكل غامر، وليس بناء مؤسسات تقليديّة، عفا عليها الزمن!!

فلنركّز جهودنا على إنارة وجوه أبناء الله، بدفء محبّته المتجسّدة فينا، لا بالثريّات والمصابيح، فلنتواصل مع معارفنا، ونجثّد صداقاتنا، ونحرّك مواهبنا، من أجل تحويل كنيستنا إلى قبس من نور ملكوت السموات.

فلننسج، بتعاوننا، شبكة من المعارف، ونستنهض المحبّة النائمة هنا وهناك، لكي تعبّر عن ذاتها، في تجميع كلّ ما من شأنه أن يؤوّل إلى خدمة الإنسان وخلاصه.

لنعلّم بعضنا بعضاً كيف نأكل "خبز الألم ونشرب خمر العيد" (أوليفيه كليمان)¹، مع بؤساء الأرض المتناثرين من حولنا، ونحن منهم بالتأكيد.

فلنجعل الكنيسة ورشة عمل، لا تهدأ الخدمة فيها، لا نهائياً ولا ليلاً. "لأنّ ابن الإنسان يجيء في ساعة لا تنتظرونها" (مت ٢٤/٤٤).

¹يشير "خبز الألم" إلى الجهادات الروحية والنسكية التي تنزع منا كل ما هو ليس من الله. أما "خمر العيد" فيشير إلى المناولة المقدسة والفرح السري في ملكوت الله.